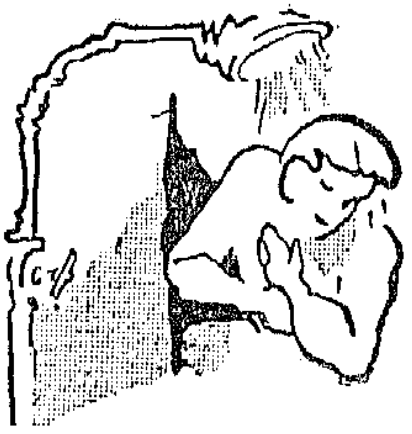

وخرج خال علّام من الحمام وهو يصرخ ويتأوه .. ويسأل علام : لِمَ لم يخبره أن الاستحمام عندهم جناية . واندهش علّام ، ووقف يستمع لما حدث .

خال علام ..

obeikandl.com

للمؤلف

تحت الطبع

الشيخ زعرب وآخرون

تمثيليات قصيرة

آثار فى الرمال

نفحة من الإيمان

أساطير الأولين

السقامات

موته لله

بين الأطلال

obeikandl.com

تطلب كتب المؤلف من :

مكتبة النهضة المصرية ، ودار الفكر العربى ، والخانجى بالقاهرة .

« المثنى ببغداد .

« المعارف ببيروت .

الواقعة فى ميس السوارى منذ ما يقرب من عشر سنين ، ولست أدرى أى شيطان ضاحك يدفع بهـــا الآن فى رأسى وأنا أجلس للكتابة فيرغمنى على أن أسطرها وأنشرها لتتخذ مكانها بين ما تعودت أن أكتب من أقاصيص . ويبدو لى أن من الخير — قبل أن أروى الواقعة — أن أعطى للقارىء فكرة عن حياتنا وقتذاك . . . فأرسم له ما يسمونه « البـاك جراوند » التى ستتخذ الواقعة محلها فيه .

كنا ثلة عزّاب نقطن الميس . والميس — لمن لا يعلم — هو سكن الضباط الذين يعيشون فى الثكنات . وكان ميس السوارى مكوناً من ست حجرات ، يسكنها دائماً أحدث ستة ضباط ، وهو مكون من طابق واحد على شكل مستطيل ناقص أحد الأضلاع . . يشغل الجناح الأيمن منه حجرات السكن . . والجناح الأيسر يشغله صالون الجلوس وحجرة الأكل . ويقوم وراءه بناء منفصل يقع به المطبخ والحمام ، وعنبر لنوم المراسلات وحمام آخر لهم .

هذا عن الميس من حيث البناء . . أما من حيث السكان فإنى أجد من العسير علىّ وصفهم . . فإن نوادرهم تتكأ كأ

على ذهنى ، فلا أدرى بأيهم أبدأ ، وقد كانوا كلهم أناساً ظرفاء . . عزازاً لطافاً . . وكان لكل منهم شخصيته المرحة المستقلة .

إنى لأجد الذهن يعود بى القهقرى فيقطع السنين الطوال فى لمح البرق ، وأجد نفسى مرتدياً الحذاء الطويل وبنطلون الركوب والقميص ، وقد عدت إلى الميس بعد المغرب عقب تمام المساء والهتاف . . وقد أحسست بساقىّ قد كلتا من فرط السير واللف فى الشكنات ، وأدخل إلى الصالون لأرتمى على أقرب مقعد . . وليس لى من أمنية سوى أن أنزع الحذاء الطويل لحظة لأريح قدمى .

وألتفت حولى فأفاجأ بالبارودى — أحد زملائى — وقد اضطجع فى أحد المقاعد ومدد ساقيه وهو ما زال برداء الطابور وبالحذاء .

وتصيبنى الدهشة من منظره . . ترى ماذا أجبره على البقاء إلى هذه اللحظة . . سجين القدمين معذب الجسد ؟ ولِمَ لم يلق عنه ملابسه وينطلق بعيداً إلى الخارج ليروّح عن نفسه ؟!

ولا تمضى فترة قصيرة حتى أعرف العلة وأستجلى السبب .

إنه اللمونى . . ولا أحد سواه .

أجل ! إن اللمونى هو سبب بقاء أنور البارودى بهذا المنظر حتى الآن . . فلقد كان يناقشه الحساب . . وحساب اللمونى — لو تعلمون — عسير .

ولكنكم لم تعرفوا اللمونى بعد .. فيجب علىّ أن أقدمه لكم أولا .

اللمونى هو حكمدار الميس وقائد الطباخين والسفرجية والمراسلات . هو الذى يتولى عملية شراء لوازم المطبخ من السوق . . وهو المسئول أمام ضابط الميس عن تقديم حساب الميس .

ولا أظنكم تجهلون مبلغ مهارة الطباخين فى المغالطة فى الحساب . وكما كان اللمونى قائد الطباخين . . كان — بحكم المهنة — شيخ المغالطين .

لننظر إلى البارودى — وقد كان وقتذاك ضابط الميس — وقد اعتدل فى مجلسه وأوقف اللمونى أمامه يحاسبه حساب الملكين .

— ها . . وجبت إيه كمان ؟

— ست ارطال لبن وأقتين سكر .

— عشان إيه دول ؟

— عشان الرز أبو لبن .

— ست ارطال لبن وأقتين سكر عشان ست اطباق رز بلبن ؟ يعنى قصدك تقول إيه ؟ قصدك تقول إن كل طبق خد رطل لبن ؟

— مضبوط .

— مضبوط إزاى بقى ؟ ! . طب أنا حاجيب رطل لبن وأفرغه فى الأطباق وأشوف يملا طبق واحد بس زى ما بتقول والا لأ .

ويبدأ البارودى تجربته . . فإذا بالرطل يملأ أربعة أطباق . وينظر إلى اللمونى وهو يحاول أن يكتم ثورته ويصيح به :

— إيه رأيك ؟

وبمنتهى الهدوء يجيب اللمونى :

— أصل اللبن بيتبخر ، يقوم يخس .

— طيب بلاش كده . . تعرف الطبق الواحد على حسابك يكلف كام ؟

— كام ؟

— خمسه صاغ . . الطبق اللى بناكله عند استرا أو أسديه بتلاته تعريفه . . بتعمله إنت بخمسه صاغ ، إيه رأيك بقى ؟

— وهوّا دا زى بتاع أسديه ؟

— لا العفو . . زيه ازاى؟ مش ممكن . . على العموم يا لمونى من هنا ورايح ما تعملش رز بلبن أبداً . مش ضرورى ناكل رز بلبن . . هات حلو أى حاجه . . هات بلح أمهات .

— كل يوم ؟

— أيوه كل يوم .

وينتهى حساب الرز أبو لبن ، ويبدأ حساب آخر لا يقطعه سوى دخول الشاذلى مصفقاً بيديه منشداً بأعلى صوته : « يا تلتميت مرحبا وسلامات يا خلى . . ياللى تكيد العواذل وانت داخل لى » .

والشاذلى كان فى ذلك الوقت عاشقاً . . وقد كان هذا العشق هو سر بقائه فى الميس . فقد كان يقضى جل وقته يهز رأسه ويترنم بأناشيد الهوى .

ويبصر الشاذلى اللمونى وهو يهم بالانصراف من أمام البارودى فينادى عليه :

— لمونى الكلب . . تقدر تقول لى اللحمه اللى جبتها النهارده دى جبتها منين ؟

— من الجزار .

— مش ممكن ، لازم جبتها من العتق .. تعرف أنا متهيأ لى إنك انت لما بتروح تشترى لنا الأكل بتعمل إيه ؟ تروح للخضرى وتقول له : عندك كوسه شايخه ؟ يقوم يقول لك لأ . تقول له : ولا بطاطس معفنه ؟ يقول لك برضه لأ .. تقول له : طيب عندك قوطه حمضانه ؟ يقول لك عندى شويه . تقول : طيب لمهم لى . . وبعدين تروح عند الجزار تسأله على لحمه بايته والا منتنه . . وتفضل تلم الزباله اللى فى السوق وتيجى تطبخها لنا .

— إزاى بقى يافندم ؟

— أهو كده . . اليوم اللى ماتطبخش فيه يبقى لازم ما فيش فى السوق حاجه وحشه .

وبعد لحظة يدخل علام ، فينظر إلى اللمونى أيضاً ويصيح به :

— لمونى . . من بكره تطلع طابور ركوب .

وهنا ينهار اللمونى . . فقد كانت تلك أكبر كارثة يمكن أن يصاب بها . . فقد كان بجسده الأبيض السمين المربرب لا يصلح قط للركوب . وكان يعتبر طابور الركوب العذاب الأكبر .

وينصرف اللمونى ، وتتوافد الثلة الواحد بعد الآخر

حتى يكتمل العقد وتنطلق الضحكات الخالصة من صدور لا تحمل الهم ولا تعرف الحزن .

وتبدأ الثلة فى التفكير فى العشاء ، فيصيح علام بعثمان شديد :

ـــ وله يا شديد !

ـــ عايز إيه يا علام؟

ـــ تشاركنى فى أقة عنب ؟

ـــ عنب إيه ياعم .

ـــ طيب تشاركنى فى بطيخه ؟

ـــ لا ياعم أنا ما احبش البطيخ . . أنا حا اتعشى عسل وطحينه .

ـــ إيه ؟! وبعدين لما أجيب البطيخه تبقى تقول لى ادينى شقة ؟

ـــ يا أخى بلاش دَوْشه . . إبعد عنى . . بطيخ إيه . . وعنب إيه .

ويشترى علام البطيخة . . ولا يكاد يشقها حتى يهجم عليه شديد خاطفاً قلبها . . فيمسك علام البطيخة ويلبسها رأس شديد .

* * *

ولكن مالى قد استرسلت فى الدردشة وقص الذكريات ورسم « الباك جراند » حتى كدت أنسى القصة نفسها ؟

هل يسمح لى القارىء بأن أسترسل به فى مجرد حديث ويغفر لى هذه المرة ألا أعطيه قصة ؟

لا أظن . . فقد ابتليت بأنى قاص ، والقارىء لن ينتظر منى ولن يستسيغ سوى قصة .

حسن . . لنبدأ القصة إذن . . وعوضنا على الله .

* * *

تلك كانت ثلة ضباط الفرسان الذين يقطنون الميس وقتذاك . . أنا والشاذلى والخضيرى وسعد الدين وعلام وسليمان وشديد وعبد العزيز مصطفى والبارودى . . ثلة مرحة ضاحكة . . نضحك من كل شىء وعلى كل شىء . . لم يكن يشغل بالنا وقتذاك سوى شىء واحد :

هو الحمام المبتل ! !

كنا نخرج مبكرين إلى طابور الركوب ، فإذا ما عدنا للفطور بعد الطابور ودخلنا إلى الحمام لكى نغسل أيدينا أو وجوهنا وجدنا أرض الحمام مغرقة بالمياه ، وأن هناك من استعمل الدش .

ويرفع علام عقيرته بالصياح :

— يا لمونى .

ويأتى اللمونى مرتجفاً ، فيصيح به علام :

— إيه الميه دى ؟

ويهز اللمونى رأسه فى دهشة ولا ينبس ببنت شفة .

ويستمر علام فى صياحه :

— فيه حد بيستحمى هنا واحنا فى الطابور ؟

— لا يافندم .

— لأ إزاى ؟ . . مش ممكن ، لازم يكون فيه حد استعمل الدش .

ويقسم اللمونى أيماناً مغلظة بأنه لم يستعمله ولم ير أحداً يستعمله .

وأخذت الواقعة تتكرر كل يوم . . نعود من الطابور فنجد أن الحمام مبتل وأن المياه قد أغرقت أرضه .

من ذا الذى يستحم يا ترى ؟

وأقسم علام أن يضبط المستحم فى حمام الضباط متلبساً بجريمته ، وأن يريه نجوم الظهر .

ومرت الأيام ونحن نحاول أن نجد الفاعل عبثاً ، حتى كان ذات يوم حضر أحد أقارب علام لزيارته وأظنه خاله .

ورجانا علام أن نحترم أنفسنا أمام الرجل . . وأن

نتمسك بأهداب الآداب ونكف عن التهريج ، حتى نظهر أمامه بمظهر محترم .

ولم يكن طلب علام بالمطلب اليسير ، فقد كان من أصعب الأمور أن نتكلف الجد وأن نكف عن المزاح ، ولكننا — مراعاة لخاطر علام وقريبه المحترم — صممنا على أن نكلف أنفسنا ما لا طاقة لها به ، وأن نتحلى بالجد والأدب .

وكان قريب علّام قد حضر من أوربا ، وقد نوى أن يبيت ليلته مع علّام حتى يسافر فى غده إلى الإسكندرية .

وقلنا لأنفسنا : لا بأس .. ليلة واحدة من الأدب يمكن احتمالها فى سبيل علّام ، وفى سبيل أن يأخذ الأغراب عنا فكرة حسنة .

وهكذا تذرعنا بالأدب والتزمنا الجد ، وجلسنا إلى العشاء فى سكون وخشية دون أن ينبو عنا لفظ جارح ، أو كلمة خارجة ، ودون أن نخاطب بعضنا بعضاً إلا بالرتب والألقاب .

ولست أشك فى أننا قد نجحنا فى محاولتنا أيما نجاح ، وأن الرجل أعجب بنا أيما إعجاب ، وأننا رفعنا رأس الفرسان عالياً فى نظر الرجل .

وفى الصباح خرجنا كعادتنا إلى الطابور ، وعدنا كلنا إلى الميس بعد الطابور إلا واحداً . هو الشاذلى . . فقد عاد قبلنا وترك الطابور فى منتصفه ، لأنه كان متعباً ، إذ كان على سفر فى الليلة السابقة .

أتسمحون لى ببضعة أسطر أصف فيها الشاذلى ؟

إنه إنسان يستحق الوصف . . إذ هو بطل الواقعة .

هل تسمحون ؟

سمحتم أم لم تسمحوا . . سأصفه وأجرى على الله .

إن خير ما يوصف به الشاذلى هو أنه رأس وحنجرة وهو يستعمل حنجرته أكثر من رأسه . . زعموا أنه كتب له فى تقريره السرى ذات مرة أنه « ضابط لايحتاج إلى بروجى » ، وهو فعلا لا يحتاج إلى بروجى . . لأنى أسمع صوته أحياناً وهو يتكلم وأكون جالساً فى مكتبى فى كوبرى القبة ، وأقوم لأبحث عنه فلا أجده ، ثم يتضح لى فى النهاية أنه يتكلم فى مصر الجديدة ، مجرد كلام .

لا أظن أن به ما يوصف أكثر من هذا . اللهم إلا أنه حاضر البديهة ، سريع النكتة حاضرها ، ويقولها ولو على نفسه وذويه . . ويفضل أن يقولها ثم يعدم أو يسجن على أن لا يقولها .

وهو مخلوق شديد الذكاء والوفاء ، باطنه خير بكثير من ظاهره ، والفضل فى تشويه ظاهره له وحده فهو خير من يشنّع بنفسه ولقد قلت له ذات مرة إن خير طريقة لتحسين سمعته هو قطع لسانه ، وهو يتلهف إلى سماع الإشاعات وترويجها ويجيد المبالغة لغير ماسبب ولا فائدة .

عاد الشاذلى من الطابور ، واتجه أول ما اتجه إلى المطبخ ليسأل اللمونى عما أعده من إفطار . . والتهم فى فمه « اللى فيه القسمه » على سبيل التذوق . . وشتم اللمونى بما فيه القسمة أيضاً ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الحمام .

ودفع باب الحمام فإذا به مغلق من الداخل .

ثم دفعه مرة ثانية .

جالك الموت يا تارك الصلاة ، والله وقعت واللى كان كان ..

أجل ! لقد سمع الشاذلى بأذنيه صوت « الدش » وهو ينهمر .

أخيراً وقع المجرم ، وفى حالة تلبس .

شهر بأكمله وهو يستغفلنا جميعاً . . ويتسلل إلى الحمام ليأخذ دشاً أثناء غيابنا فى الطابور .

إنه أحد الطباخين أو أحد المراسلات .

وصاح الشاذلى وفى صوته رنة انتصار :

ـ افتح يا حيوان .

ولم يسمع أى رد .. بل استمر صوت «الدش» ينهمر ، وقطرات الماء تطرق الأرض وجسم المستحم .

وعاد الشاذلى يصيح مهدداً :

ـ افتح بقول لك .

ولكن لم يجب أحد .. ولم يفتح الباب .

وتراجع الشاذلى عن الباب قليلا .. وبكل قوته دفع الباب بكتفه .. فانفتح .. واندفع هو إلى الحمام .. رافعاً سوط الركوب بيده .. ليهوى به على الجانى .. ويؤدبه تأديباً سريعاً .

تعالت الصيحات ، وتعالت الضربات :

ـ آى .

ـ آى يا ابن الكلب ... أمال فالح كل يوم تخش تستحمى وتغرق الحمام .

ـ أنا أصلى ...

ـ أصلك إيه ؟ ! أصلك حيوان .

ـ أنا ..

ـ انت إيه ؟

— أنا قريب علام .

— قريب مين ؟ !

— قريب علام .

— يا نهار إسود . . وإيه اللى جابك هنا .

وفى تلك اللحظة سمع الشاذلى صوت علّام . . وأدرك ماذا يمكن أن يحدث له من علّام إذا عرف ما فعله بقريبه ، فترك الحمام . . وانطلق يعدو فى الاتجاه الآخر . . هارباً من الميس .

وخرج قريب علام من الحمام يصرخ ويتأوه ، ويسأل علّام لِمَ لم يخبره أن الاستحمام عندهم جناية . . واندهش علّام ووقف يستمع إلى ماحدث ثم انطلق يعدو فى أعقاب الشاذلى .

ويعلم الله ما فعله به .

ويعلم الله كذلك ماذا كان رأى قريب علّام فينا بعد العلقة التى أخذها لمغامرته بالاستحمام .

أغلب الظن أنه كان يفضل المبيت على قارعة الطريق . . فقد كان يصبح أكثر أمناً ! !